

الموهبة

تحدثنا فى الفصول السابقة عن الإبداع، باعتباره أحدك الأشياء قسمة بين الناس، وبيننا أن الناس يولدون وهم مزودون بالقدره والموهبة والإمكانية، وأكدنا على أن المنتج الإبداعى لا بد وأن يتصف بخصائص، لعل من أهمها أنه نسبى غير مطلق، وأنه يتصف بالجدة واستمرارية الأثر والقيمة.

وأكدنا على أن الموهبة تأتى فى إطار الإبداع، فكل مبدع موهوب فى إنتاجه الإبداعى، أى أن إنتاجه الإبداعى يتصف بالخصائص السالفة الذكر.

وهنا نتساءل عن القصد من الموهبة؟ وعن مدى ارتباط الموهبة بالإبداع؟ نجيب بأن ثمة إجماع بين المشتغلين بالإبداع، على أن الموهبة قدرة خاصة، تتحدد بتحدد مجالها، فقد تكون هذه القدرة فنية، أو اجتماعية أو موسيقية وما إلى ذلك.

أما الموهوب فهو من تفوق فى قدرة أو أكثر من القدرات الخاصة. أو هو من وصل فى أدائه إلى مستوى رفيع فى مجال من المجالات غير الأكاديمية، كالفنون والألعاب الرياضية، والمجالات الحرفية أو المهارات الاجتماعية وغير ذلك من المجالات التى تعتبر بعيدة الصلة عن الذكاء وقياسه.

يعرف جيمى دريفر صاحب معجم علم النفس (١٩٥٢) الموهوب بأنه من لديه مواهب ذات مستوى عال فى مجال معين أو فى عدة مجالات.

وفى معجم علم النفس لانجلش وانجلش فإن الموهوب هو من لديه موهبة بدرجة عالية، أو من لديه ذكاء عال.

وفى هذا التعريف ربط بين الموهبة والذكاء.

وهو ربط لا تدعمه آراء الثقة فى علم النفس، فها هو لانج واكيوم يقول: «بأن المواهب قدرات خاصة ذات أصل تكوينى، لا ترتبط بذكاء الفرد، بل إن بعضها قد يوجد بين ذوى الحاجات الخاصة».

وقد نبه سيبرمان إلى ضرورة فصل الإنتاج الإبداعى الذى يتسم بموهبة الإبداع عن الذكاء العام، مؤكدا على وجود عوامل أخرى تعمل بجانب الذكاء، لعل من أهم هذه العوامل: ما هو انفعالى وما هو اجتماعى وما هو بيئى.

ولم يستطع جالتون وهو من أشد المنادين بأن الذكاء وراثى أن يتجاهل وجود عوامل متعددة تؤثر فى الإنتاج الإبداعى فالقرد قد يرث القدرة على الإنتاج الإبداعى غير أن الظروف الاجتماعية وإحباطات الحياة قد تحول دون ذلك.

وهنا لابد من فصل الموهبة عن اختبارات الذكاء، فعلى سبيل المثال، الطفل الذى لديه عيوب فى الحساب أو القراءة قد يكون متمتعا بمواهب موسيقية أو رياضية وذلك راجع إلى أن الطفل الموهوب غالبا ما يتمتع

بقدرات أداء عالية فى أحد أو بعض المجالات الإبداعية أو الفنية أو القيادية أو الاجتماعية أو الرياضية ولذلك فعلى المدرسة أن توفر هذه المجالات التى من خلالها يكتشف الأطفال قدراتهم ومواهبهم.

أضف إلى ذلك أن إبداع الموهبة لا يتحقق إلا فى سياق ثقافى اجتماعى يتخذ من التعليم قضية محورية فى ثقافة المجتمع، لأن التعليم هو الوسيلة المركزية لتحقيق التطور والتغير المطلوب فى مجتمعنا. ولهذا فإن التطور فى التعليم لا يمكن أن يتحقق إلا فى إطار ثقافى.

وهذا راجع إلى أن للتعليم مهمة مزدوجة تكمن فى: نقل المعلومات والحفاظ على القيم المتوارثة، وتمكين الشباب والأطفال من التغلب على الأوضاع المعوقة للتطور والتنمية، وذلك عن طريق إتاحة المجال أمام المواهب والقدرات الشخصية والإبداعية على التعبير الحر عن ذاتها بما ينفع المجتمع ويحقق له التقدم والتواصل بين أفرادها.

ولا يمكن للتعليم أن يحقق غاياته إلا فى إطار من ثقافة المجتمع، وما يواجهه من تحديات فى عصر العلم والتكنولوجيا، وثورة المعلومات والفضاء والمواصلات والالكترونيات والاتصالات والهندسة الوراثية والمواد المخلفة والحواسب الآلية والذكاء الصناعى.

وتأسيساً على ذلك، لا يمكن الفصل بين التعليم وكافة مجالات التنمية الشاملة اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وثقافياً، لأن التعليم هو الذى يقدم إلى الأمة الكوادر القادرة على مواجهة متطلبات التنمية بكافة مجالاتها، وهو الذى يسمح من خلال أساليبه التربوية بالتساح الثقافى، والاختلاف فى الراى، والقدرة على التفكير الناقد.

وهنا يأتي دور الثقافة باعتبارها الإطار المرجعي الذي يتحرك التعليم من خلاله، لتقديم المواهب الإبداعية والمهنية القادرة على مواجهة التحديات التكنولوجية والتعايش مع العصر في كل متغيراته.

وهذه الواجهة لا تتم إلا من خلال تفجير طاقات المبدعين وأصحاب المواهب.

يرى ترومان أن الإنتاج الموهوب إبداع، والمنتج الإبداعي يتسم بالتميز، ذلك أن الموهوب بالقوة يتحول إلى مبدع بالفعل وحيث إن ما بالفعل متقدم على ما بالقوة، فالقدرة الإبداعية إذن متقدمة على الموهبة، فلا توجد موهبة بغير إنتاج يؤكد أصالة هذه الموهبة، فنحن نقول عن هذا الموسيقى بأنه (موهوب) لأنه كتب (نوتة) موسيقية غاية في الروعة والإبداع، ونقول عازف موهوب لأن عزفه يتسم بالتميز والأصالة والجمال.

إذن فإن الذي يميز عمل الموهوب هو إنتاجه وإن هذا الإنتاج لا بد أن يتصف بخصائص، لعل من أهمها الجودة والقيمة والاستمرارية والقابلية للتطور، وهذه الخصائص هي نفسها ما نطلقه على الإنتاج الإبداعي. فالإبداع لا معنى له بغير منتج يترجم هذا الإبداع، والموهبة لا وجود لها بغير منتج يعبر عنها.

ومن هنا فإن الطفل الموهوب بالقوة، أي الطفل الذي ينطوى على قدرات كامنة ومتأصلة في داخله، قد تتحول إلى إنتاج إبداعي، وقد

يتحول هو إلى شخص مبدع بالفعل، بمعنى أنه قام بتفعيل موهبته، أى بتحويلها إلى أفعال إبداعية.

وتأسيسًا على ذلك فإن القدرة والإمكانية والموهبة ما هى إلا تنويعات على معنى واحد. هو الإبداع، والموهبة لا تتحقق إلا فى إطار من الإبداع، فالقدرة الإبداعية متقدمة على الموهبة.

وإذا ما أردنا للمواهب المتميزة فى العلم والتكنولوجيا والفنون والآداب بكافة مجالاتها التعبيرية أن تنطلق، أو أن تقدم إبداعاتها، فإن ذلك مشروط بنسق تعليمى يوفر مجالات لمواهب الإبداع أن تعبر عن نفسها فى الرياضة وفى الفنون وفى الآداب والموسيقى والغناء وما إلى ذلك.

وهنا نتساءل كيف يمكن للطفل أن يعبر عن قدراته الرياضية وأن يتيح ليدنه نموا سليما، ومعظم المدارس تخلو من ملاعب رياضية، حتى حصص الألعاب الرياضية غالبا ما تضم إلى حصص المواد الأكاديمية الأمر الذى أصبح ينبئ بجول ضعيف البنية لا يستطيع أن ينافس عالميا، وخير دليل على ذلك ما نلاحظه فى البطولات الأولمبية والعالمية؟

كيف يمكن أن نفجر مواهب التلميذ فى الفنون ومعظم المدارس تخلو من مراسم وحتى ما كان يطلق عليه حصص الأشغال الفنية، لم تعد موجودة، كيف يمكن أن نفجر الطاقات الإبداعية الموسيقية ومدارسنا تركز على شيء واحد فقط، ولا شيء سواه، هو حشو أدمغة الطلاب بالمعلومات، بغير فهم أو تمثيل أو هضم، توطئه لاسترجاع ما حفظه الطالب يوم الامتحان، الذى فيه تقاس قدراته على الحفظ.

كيف يمكن أن نفجر المواهب المبدعة فى كافة المجالات ونحن نضع معياراً واحداً لقياس قدرات الطالب، وهو كم الدرجات التى يحصل عليها آخر العام. المعيار الوحيد لدينا هو كم الدرجات، الأمر الذى أسهم إلى حد كبير فى إجهاض قدرات الطالب وموابه الإبداعية.

لقد أصبحت الغاية هو الحصول على أعلى الدرجات، وأمام هذه الغاية انهارت قيم كانت راسخة، حيث تفتى الغش فى الامتحانات الذى أصبح وسيلة من وسائل النجاح والحصول على أعلى الدرجات.

ولم يعد الغش قديماً، لقد أصبح جماعياً فى بعض المناطق، الأمر الذى قد ينبى بتدمير قيم عاش عليها المصرى، وتوارثها عبر تاريخه الطويل، تلك القيم التى كانت تؤكد دوماً على أصالة المصرى وأمانته وإصراره على الإتقان والإبداع فى عمله.

وبالرغم مما تبذله الدولة ممثلة فى وزارة التعليم لمحاصرة ظاهرة الدروس الخصوصية، فإن هذه الظاهرة ما زالت فى ازدياد، ولعل المسئول عن ذلك، تلك الاختبارات التى تكشف عمّا حفظه الطالب واستظهره من معلومات، ولا تتجاوز ذلك إلى قياس القدرة والموهبة والإبداع.

لقد دفع السباق المحموم للحصول على أكبر قدر من الدرجات للالتحاق بالجامعة، الأسر إلى انتزاع الثقة بالنفس وبالقدرات من الأبناء، وخلعها على المدرس الخصوصى، الذى عليه أن يقوم بتكثيف المادة العلمية فى (كبسولات) من أثير، تتلاشى بتلاشى يوم الاختبار، وهذا

وضع من شأنه أن يقتلع الثقة بالنفس وبالقدرات، ويعطل الإبداع الذى هو جوهر وجود الإنسان.

وهذا أمر يستلزم حواراً قومياً تشارك فيه جميع القوى السياسية والثقافية داخل المجتمع، لمعرفة الأسباب التى أدت إلى هذا التضخم فى الدرجات دون فاعلية علمية حقيقية.

ورغم هذا يظل نظام الامتحانات لدينا فى حاجة إلى انقلاب علمى يتيح للقدرات والمواهب والامكانيات أن تنطلق وأن تزدهر، وأن تتفجر، ولهذا فنحن نريد تعليماً يقوم على إبداع الموهبة ويكشف القدرات الخبيئة، تعليماً يتجسد فى أعمال إبداعية فى المستقبل.

تعليمياً يقدم حلولاً إبداعية لمشاكل مصرية لم تعد تقليدية، فى عالم المتخلف عن إيقاعه لا مكان له متميز على خريطة الدنيا.

والدول التى قطعت شوطاً فى رعاية الإبداع والموهوبين، اهتمت أساساً بتوفير البيئة الإبداعية للطالب من خلال نسق تعليمى متميز يقوم على الإبداع والموهوبين، ولا يقوم على الحفظ والتلقين.

ولعل فى تجارب بعض مدارس الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا واليابان ما ينهض دليلاً على أن الاهتمام بالمبدعين والموهوبين هو أعظم استثمار فى عالم الإنسان.

أولاً: تقوم فلسفة التعليم فى الولايات المتحدة الأمريكية على النظر إلى الطفل باعتباره Bio-psycho-social organism، أى باعتباره

كيانا عضويا ونفسياً واجتماعياً واحداً، ومن ثم فهم يركزون على تنمية الطفل بدنياً واجتماعياً وحسياً وعاطفياً وجمالياً وخلقياً، بحيث تتفاعل هذه الجوانب بعضها مع بعض؛ ومن تفاعلها تظهر موهبة الإبداع وتنضج، ولهذا فإن الاهتمام ينصب على ما يعرفه الطفل وليس على ما لا يعرفه، عما يستطيعه وليس على ما لا يستطيعه.

ثانياً: التأكيد على النزعة البرجماتية في تعليم الطفل، أى التركيز على أن التعليم يكون من خلال الفعل والعمل، ودور المعلم فى ذلك ينحصر فى التوجيه وتسهيل المعرفة، وليس فى نقل المعرفة وحشو الأدمغة بهذه المعلومات.

ولهذا فهم يركزون على ثقافة الإبداع وليس على ثقافة الذاكرة، فالمعلومات موجودة فى الكتب، وثورة المعلومات والانترنت والمعلوماتية قد جعلت من الميسور الحصول على المعلومة، إذا ما أتقن الطفل مهارات البحث عنها.

ثالثاً: وتقوم هذه الفلسفة على التعلم الذاتى، فالطفل يكون لنفسه رؤية عن العالم، وعن المجتمع الذى يعيش فيه، وعن المستقبل، وهذه الرؤية تتم من خلال تفاعله الخصب مع البيئة، وتجاربه مع موضوعات حقيقية.

وأبعاً: تنمية الإحساس بالمشكلات وكيفية حلها، وهذا مردود إلى أن الإحساس بالمشكلات هو بداية الطريق إلى الإبداع، فكيف يبدع

الإنسان بغير إحساس بما يحيط به من مشكلات، أى بغير نزوع دائم للخروج من أسر المألوف الذى يمثل مشكلة إلى اللامألوف، أى إلى الجديد فى أى مجال من مجالات المعرفة الإنسانية.

خامساً: الحرص على إكساب الطفل المهارات الاجتماعية التى تجعله يؤكد ذاته وإمكاناته، بحيث يكون قادراً على المبادأة فى المواقف، معبراً عن نفسه، وعن مشاعره بحرية وتلقائية بغير خوف أو فقدان ثقة.

وهذه الفلسفة تقوم على النظر إلى الطفل باعتباره هوية متميزة فى سبيلها إلى التحقق، وإمكانية خلاقية، ومشروع وجود يمضى من حالات اللاتمايز إلى التمايز المستمر فى طريق التقدم والوهبة والإبداع.

سادساً: التركيز على أن الطفل يتعلم على نحو أسرع عندما يكون نشاطه وعمله ذات مغزى. أى ذات قيمة، وجدوى، ومنفعة ودلالة.

وخلاصة هذه الفلسفة هو أن الطفل إمكانية مفتوحة، بيد أنها تظل خبيثة ومغلقة. تتعرف على نفسها، وتعبّر عن إمكاناتها من خلال إتاحة كافة الحالات والفرص، أى من خلال بيئة إبداعية تثير كوامن القدرة والوهبة والإبداع، حسيًا ومعرفيًا وفنيًا ورياضيًا وأكاديميًا واجتماعيًا.

المهم أن يتاح للطفل كافة المجالات التى تنصهر معه، ومن خلالها يكتشف هو نفسه المجال الذى يستطيع النبوغ فيه، وهذا الاكتشاف

يكون مرثيا محسوساً لدى المشرفين على العملية التعليمية، التي يكون فيها المعلم مجرد مسهل للتعليم وليس ناقلاً للمعرفة.

والأطفال يتعلمون من خلال التفاعل الاجتماعي، ومن خلال تفاعلهم مع بعض، ومن خلال إحساسهم باختلافاتهم الفردية، وهذا الاختلاف يجعل الطفل يشعر بقيمة قبول الآخر المبين له في الرأي والاعتقاد، ومن ثم يتعلم كيف يكون متسامحاً رغم التباين.

والطفل يتعلم أيضاً من خلال التوحد identification أى من خلال التقمص الوجداني مع الآباء والمعلمين، ولهذا ضرورة أن تمثل القدوة قيمة بالنسبة إلى الطفل.

ورغم محاولة بعض المدارس الأمريكية الاستناد إلى هذه الفلسفة في رعاية الموهوبين ولاسيما في مدرسة (مارين) للأطفال الموهوبين، إلا أن تقرير التعلم لعام ١٩٩٤ أشار إلى أن برنامج الأطفال الموهوبين لم يحقق أهدافه، حيث لم توضع أمام الأطفال الموهوبين المواد المحفزة على الإبداع، والمواقف التي تثير التحدى الخلاق، وتحفز على الإبداع، وأن القائمين على هذه المدرسة لم يبذلوا قصارى جهودهم لتحقيق الأهداف المرجوة.

وقدم التقرير بعض التوصيات التي تفيد في تحسين البيئة الإبداعية للطفل الموهوب وذلك عن طريق:

- توسيع مجالات مفهوم المواهب ليشمل كافة جوانب الحياة.
- زيادة فرص تعليم أطفال الأقليات والمحرومين من أصحاب المواهب المتميزة.

والحقيقة فإن هذه التوصية تستمد دلالتها من طبيعة المجتمع الأمريكي باعتباره مجتمعا متعدد الثقافات، متعدد العرقيات، بيد أنه مجتمع واحد، ومن خلال انصهار هذه الثقافات وتلك العرقيات فى بوتقة واحدة، حققت هذا التقدم التكنولوجى العلمى والمعرفى فى المجتمع الأمريكى. ولهذا كان ضرورة التركيز على الأقليات والمحرومين، باعتبار أن الموهبة قيمة فى حد ذاتها بغض النظر عن نوعية ثقافة الأقليات أو انتماءاتهم العرقية وإضافة إلى ذلك كانت هناك توصية بزيادة أعداد التلاميذ الموهوبين فى هذه المدارس.

ومع ذلك تتبنى مدارس تعليم الأطفال الموهوبين سياسات واستراتيجيات تربط بين الأطفال الموهوبين وبين مجالات مواهبهم، وذلك عن طريق أدوات قياسية تمكنهم من الكشف المبكر عن الأطفال الموهوبين. ثم إعداد برامج رعاية تتناسب مع كل موهبة من حيث صقل هذه الموهبة وإثرائها علميا وأكاديميا.

ولعل من أهم الاستراتيجيات ما يكمن فى كيفية إعداد المعلم القادر على التعامل مع الموهوبين.

وهناك تباين فى الاستراتيجيات الخاصة بالتعامل مع الأطفال الموهوبين. أهمها يكمن فى:

- ضرورة دمج الموهوبين مع الأطفال العاديين، مع ضرورة النظر إليهم كأطفال حاصلين على درجات شرف عليا، وفى وجود الطفل الموهوب مع الطفل العادى تحفيز للعادى على النشاط الإبداعي.

وهذا النظام مطبق في الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا.

- أما نظام عزل الموهوب في فصول خاصة عن باقي التلاميذ، ومنحه زاداً علمياً وفكرياً يتفق مع قدراته، فهو نظام مطبق في كثير من الدول مثل فرنسا وألمانيا واليابان، والهدف من ذلك هو إيجاد جيل من الموهوبين الذين يمثلون النخبة المتميزة في إحداث التغيير المنشود في المستقبل.

على أية حال، فمن الواضح أن هناك اهتماماً بالغ الأهمية بالأطفال الموهوبين باعتبارهم أدوات الأمم المستقبلية في إحداث التطور والتغيير.

وثمة تجربة جديرة بالالتفات في إنجلترا في مدرسة (بيلين) Belin لتعليم الموهوبين الذين يتصفون بقدرات خاصة في كثير من العلوم الاجتماعية والرياضية والطبيعية والبيولوجية.

ومن بين التجارب الأكاديمية التي تقدمها هذه المدرسة:

برنامج Success نجاح: وهو برنامج أكاديمي تجريبي يقدم لفصلين من فصول المدرسة بداية من عام ١٩٩٩، ويقوم بتنفيذه مركز تعليم الموهوبين، وجامعة كالجري بالتعاون مع بعض المراكز العلمية بجامعة أيوا الأمريكية.

ويشترط للالتحاق بهذا البرنامج تمتع الطالب بقدرات خاصة تمكنه من الفهم واستيعاب الخبرات الأكاديمية المتقدمة.

● برنامج إدراكات Perceptions لتزويد الطلاب الموهوبين بخبرات متميزة ومبدعة في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية.

● برنامج عجائب الكون، حيث ينخرط الطلاب في مواقف حية ومجسدة من خلال مناقشة علمية تتصل بعلوم الفيزياء والجيولوجيا والكيمياء والبيولوجيا وإضافة إلى هذه البرامج تضمين الجوانب الرياضية.

وتستعين هذه المدرسة بالخبرات العلمية من مؤسسات بحثية وجامعية ومجتمعية، تساعد التلاميذ على الاكتشافات العلمية، ومعالجة المشكلات بطرق إبداعية غير تقليدية.

وتحتوي برامج المدرسة على مواد أكاديمية وعلى مجالات غير أكاديمية لاستثارة كوامن المواهب لدى التلاميذ مثل الرسم والبناء والتصميم. إضافة إلى ذلك تعميق إحساس التلاميذ بالجوانب الاجتماعية والأخلاقية، وتشجيعهم على الخيال وعلى تلقائية التفكير الإبداعي بغير خوف أو تردد.

وهناك نماذج كثيرة لدول حققت وثبات في طريق التطور والتغيير.

وهذه الوثبات العلمية والتكنولوجية لم تتحقق إلا في سياق من ثقافة مجتمعات تحض على الإبداع، ولا ترى بديلا عنه.

فهل ثمة علاقة بين الإبداع وثقافة المجتمع؟